محمد يوسف الجندى (١)

كان هذا الفتى نموذجا غريبا، باع كل ما ورثه عن أبيه وسلم ثمنه للتنظيم من أجل شراء مطبعة سرية، إنه نموذج لا يتكرر إلا عند الرهبان إذ يهبون كل ثروتهم للكنيسة وبعدها يبدأون مسيرة الرهبنة.
جيل بيرو فى كتابه «رجل من طراز فريد» متحدثا عن محمد الجندى

كما يعرف الجميع هو ابن هذا الرجل الذى اشتهر فى تاريخ مصر الحديثة بأنه «إمبراطور زفتى». ففى خضم ثورة ١٩١٩ نشأت موجة ثورية ترفض الخضوع لسلطة الحكم العميلة للاحتلال، أو الخضوع للاحتلال نفسه، ومن ثم أعلنت استقلالها، ولم يكن هذا نزوعا نحو تقسيم الوطن وإنما كان إشهاراً لرفض الخضوع للاحتلال وعملائه، ففى المنيا والمطرية وزفتى أعلنت جمهوريات تحت قيادات محلية، وكان يوسف الجندى هو مفجر الثورة فى «زفتى» ورئيس مجلسها الثورى ويصبح الثورى الشاب فيما بعد نجما وفديا لامعا ووكيلا لمجلس الشيوخ ووزيرا. ومع رحيله ترك ثروة متواضعة نال محمد منها ١٦ فدانا وعددا من السندات، لكنه ترك له ما هو أهم، ذخيرة لا تفنى من عشق الوطن والشعب.

وفى مدرسة الإبراهيمية الثانوية تقابل محمد مع تيار يسارى تواجد فى هذا المناخ الذى تشكل على طلقات مدافع ستالينجراد ضد غزو النازى وبدأ فى دراسة الأفكار الاشتراكية. عثر على نسخة من دستور الاتحاد السوفيتى وانبهر بعبارات مثل «حكم العمال والفلاحين» «الاشتراكية» «حرية الشعوب» وأمسك قلما وكتب مقالا فى مجلة وفدية اسمها «الشعلة» تحدث فيه عن الاتحاد السوفيتى ودستوره وأكد ويا للغرابة أن نهاية النازى ستكون على يدى دولة العمال والفلاحين وتكونت شلة من الأصدقاء تحكى، وتحكى عن الاشتراكية وعن العدل وعن الاستعمار لكن الأمور ظلت بالنسبة له غامضة، أما الشلة وهى مكونة من محمد وأخاه أحمد وجمال العطيفى وعبدالقادر العايدى، وبعد حديث طويل

عن العمال قرر الأربعة أن يشتغلوا فى الإجازة الصيفية كعمال وسافروا جميعا إلى زفتى ليعملوا هناك، لكنه لم يكتف بالعمل اليدوى الشاق بل كون جمعية للنهوض بزفتى، وفى النادى نظم سلسلة من المحاضرات ثم ألقى عدة محاضرات فى مقر شعبة الإخوان ومع بدء العام الدراسى عادوا إلى القاهرة لكن محمد واصل هواية إلقاء المحاضرات فى أى مكان متاح، وفى شعبة الإخوان بحى السيدة زينب تألق فى سلسلة محاضرات عن «العدل الاجتماعى فى الإسلام» والعين اليقظة تلتقطه وتحدد له موعدا مع حسن البنا الذى حاول ضمه للإخوان لكنه أفلت من بين يديه متحصنا بالملامح اليسارية التى سمعها من أبيه وبالمناقشات السياسية فى المدرسة، وعندما وصل إلى التوجيهية (العام الأخير فى المرحلة الثانوية) أسس جمعية البعث الاجتماعى ويكون أول بند فى برنامجها «إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج» ويلاحقه الإخوان فيقنعونه بإضافة بند عن «تطبيق الشريعة» لكن، يعود فيفلت منهم ويصل عدد أعضاء جمعيته إلى ثلاثين عضوا منهم فؤاد محيى الدين، طبعوا البرنامج بقروش المصروف اليومى ووزعوه فى الجامعة والمدارس، وذات يوم دعاه صديق قديم هو محمد زكى هاشم ليستمع إلى محاضرة له عن «الملكية الزراعية فى مصر». ذهب محمد وجماعته وللمرة الأولى يستمعون إلى منطق اشتراكى متسق ومتكامل، وكان محمد زكى هاشم عضوا فى منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى (ح. م) ودعاهم إلى محاضرة أخرى فى «لجنة نشر الثقافة الحديثة» فذهب هو وأخوه أحمد وجمال العطيفى وهناك التقوا بسعيد خيال ونعمان عاشور ومصطفى كامل منيب وأنور عبدالملك، ثم دعوه إلى محاضرة أخرى فى ناد آخر هو «دار الأبحاث العلمية» وهناك التقى بشهدى عطية وعبدالمعبود الجبيلى، ومضى محمد الجندى كالمسحور، اجتذبه وهج الشمس الجديدة التى أشرقت فى وجدانه، فثمة كتب ماركسية باللغة الإنجليزية يجرى تداولها بحذر شديد، وحلقات حوارية تناقش قضايا جديدة عليه تماما: الفلسفة المادية التاريخية والمادية الجدلية، الاقتصاد السياسى، وهج الفكر الجديد اجتذبه تماما، نسى كل شئ إلا هذا الوهج فاندفع معه وبه إلى أقصى مدى وبعد أربعة أشهر دعاه شهدى عطية إلى لقاء خاص وعرض عليه أن ينضم إلى منظمة إيسكرا «شرارة» قاطعه محمد قبل أن يكمل الجملة مؤكدا موافقته ومتسائلا لماذا انتظرتم كل هذه المدة، واستقر الحلم فى قلبه وعاش من أجله حتى آخر نسمات الحياة.

كان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكانت الحركة الوطنية تلتهب وتتصاعد معها إرهاصات العمل الوطنى ضد الاحتلال وضد القصر الملكى، كان محمد ينشط بحماس ولكن بحذر أما أخوه أحمد فكان حماسه أقل وبلا حذر فتعلقت أنظار الأمن بأحمد، وكان بيتهما فى شارع معمل البارود بقصر العينى مكانا لعشرات من الاجتماعات، وكان المقر الذى تأسست فيه النواة القيادية «للجنة الوطنية للطلبة والعمال» بينما كانت الاجتماعات الموسعة تعقد فى ملاعب ومدرجات كلية الطب، وذات يوم فوجئ محمد بحوالى مائتين من العمال يحتشدون فى مدخل البيت ليعقدوا اجتماعهم عنده، كانوا يعتزمون عقد اجتماع للهيئة التأسيسية لاتحاد العمال لكن الأمن طاردهم فتواعدوا والتقوا ثانية حيث قادهم أحد الرفاق إلى بيته.

وكان الأمن قد ضاق ذرعا بهذا النشاط وبتحويل منزل يوسف بك الجندى إلى محل لمقابلات تنظيمية وتجمعات عمالية لكن ذلك كله كان منسوبا إلى أحمد وليس إلى محمد، وفى حملة ١١ يوليو ١٩٤٧ التى شنها الطاغية صدقى ضد كل قوى التقدم واليسار صدر أمر بالقبض على أحمد فاختفى ومن قبيل الاحتياط اختفى معه محمد وعاشا هاربين فى بيت صديقهما القديم جمال العطيفى.

ونواصل المسيرة مع محمد الجندى.